النقد والطربوش وزجاج النافذة

للدكتور طه حسين

وتستطيع ان تضيف الى هذه العنوانات عنوانات أخرى ، فهناك أزقة ضيقة شديدة الضيق ، ملتوية شديدة الالتواء ، قد كثر على ارضها الوحل ، حتى ان الذى يمشى فيها ليتزلق ، أو يمشى مشية مسلم بن الوليد فى بيته المشهور :

اذا ماعلت منا ذؤابة شارب تمشت به مشى المقيد فى الوحل

وقد أمطرت سماؤها أو نوافذ ما يقوم فيها من الدور ألوانا من المطر ، منها السائل ومنها اليابس ، نستغفر الله ، بل قد صبت سماؤها أو نوافذ مايقوم فيها من الدور الوانا من البلاء ، منها مرق الفول النابت ، وماء المخلل ، وفيها أشياء أخرى جامدة كانت تهوى على الرؤوس ، وربما مست العيون ، وربما دخلت الافواه ووصلت الى الحلوق فانحصرت فيها انحصارا ، وأذكت فيها لهبا ونارا ، وقد كان فى هذه الازقة مارد من مردة الجن أو مردة الانس ، له صدر عريض قد انتفش فيه شعر طويل حاد كأنه الاسنة ، يصطدم به الرجل القصير فاذا هذا الشعر الطويل الحاد يداعبه ويلاعبه ، فيعبث بوجهه ، ويدخل فى أنفه وفمه وفى عينيه . وقد كان فى هذه الازقة غلام شرير ، لسانه عذب ، ويده مرة ، وقد كان فى هذه الازقة شاب ظاهر الغباوة والبله ، خفى المكر والغدر ، شديد البأس والبطش ، يخيف من ليس من شأنه ان يخاف ، ويضطر اثبت الناس قلبا وأشدهم استهزاء بالحياة الى أن يعدو عدو الشنفرى وتأبط شرا وابن براق ، حتى يدفع الى دار من الدور ، ثم الى بيت من بيوت هذه الدار ، فلا يدخل هذا البيت من بابه كما أمر الله أن تؤتى البيوت ، وانما يدخله من إحدى نوافذه . وفى هذه الازقة شيخ وقور ، ظاهره يخيف ، وباطنه فيه الرحمة واللين ، وفيه الرفق والدعة ، وفيه الادب وحسن الذوق

كل هذه الأشياء ، وكل هؤلاء الاشخاص ، يمكن أن تضاف ويمكن أن يضافوا الى هذه العنوانات التى قدمتها بين يدى هذا الكلام ، ولكنى لم أضفها تحرجا من الاطالة واشفاقا من الاطناب ، وايثارا للايجاز البليغ .

وأنا أستطيع بعد ان وضعت هذا العنوان وأتبعته بهذا الكلام ، أن أتحول بك الى ما شئت أنت أو ما شئت أنا من الموضوعات ، فاتحدث اليك فيه حديثا طويلا أو قصيرا ، وأعرض عليك فيه صورا جميلة أو ذميمة ، وأثير فى نفسك به عواطف هادئة أو جامحة ، وأرسم على وجهك به ابتساما وضحكا ، أو عبوسا وتقطيبا ، حتى اذا بلغت من هذا كله ما تريد أنت ، أو ما أريد أنا ، أو ما نريد جميعا ، ذكرت النقد والطربوش وزجاج النافذة . واعتقدت أنا أو خيلت اليك انى أعتقد ، واعتقدت أنت أو خيلت إلى نفسك انك اعتقدت ، واعتقد صديق الاستاذ المازنى ، أو خيل الى نفسه والينا أنه يعتقد ، انى قد أمتعت الرسالة وقراء الرسالة بفصل قيم أو غير قيم ، قوامه الحديث عن النقد والطربوش وزجاج النافذة !

وتسألنى مابال الاستاذ المازنى يقحم هنا اقحاما ، وما خطبه مع النقد والطربوش وزجاج النافذة ومرق الفول النابت ، وماء المخلل ، وما يتبع هذا كله من الأشياء والأحياء ؟ فاجيبك بأن هذا السؤال لا ينبغى أن يساق الى ، وانما ينبغى أن يساق الى الأستاذ المازنى ، فهو الذى تحدث عن هذا كله ، وهو الذى أثارنى إلى أن أتحدث عن هذا كله ، وليس من شك فى أن الأستاذ المازنى سيقول فى دعابته الحلوة الظريفة ، وما أنت وجر الشكل ، وما لك تدخل بينى وبين النقد والطربوش وزجاج النافذة ، وما يتصل بها من الملحقات ؟ . ولكن الأستاذ يوافقنى أو لا يوافقنى — فهذا سواء — على أنه صاحب فن ، وعلى أن أصحاب الفن ان كتبوا لأنفسهم فهم ينشرون للناس ، وعلى أن صاحب الفن لا يملك أثره الفنى بعد أن يلقيه إلى الناس . وعلى أن من حق الناس اذا ألقى اليهم شيء أن يتناولوه كما يحبون ، يعجبون به أو يسخطون عليه ، يرغبون فيه أو ينصرفون عنه ، يحمدونه أو يسلطون عليه اللوم .

وإذن فقد ألقى الينا الأستاذ المازنى فصله الممتع البديع الذى أثارنى الى أن أتحدث اليك عن النقد والطربوش وزجاج النافذة ، أو الى أن أتحدث اليك عن الأستاذ المازنى نفسه من وراء هذه الأشياء التى لا تحصى ، والتى لا أكره تكرارها ، وما أظنك تكره تكرارها ، وهى النقد والطربوش وزجاج النافذة والأزقة وما يترامى على أرضها من الوحل ، وما تصبه سماؤها من السائل والجامد ، ومن يمشى بين ذلك من الأشرار والأخيار .

وللاستاذ المازنى مع هذه الأشياء كلها ، ومع هؤلاء الناس كلهم ، ومعك أنت وبينى وبينك أنا ، قصة طريفة ظريفة ، خليقة أن

تقص ، وخليقة أن تثير الاعجاب . فهل تدرى ماذا دفع الاستاذ المازنى الى أن يتحدث عن هذه الاشياء ، وعن هؤلاء الاشخاص ، فيثيرنى الى أن أتحدث عنه ، وعنها ، وعنهم ؟ هو شيء يسير ، يسير جدا ، هو أنه أديب يقرأ فى الكتب ، ويكتب فى الصحف ، وينقد الكتاب والمؤلفين . وقد تتغير الازمنة وتتبدل ظروف الحياة وترقى الاجيال بعد انحطاط ، ولكن هناك شيئا لا يتغير ولا يتبدل فى حقيقة الأمر ، وهو أن الأدب محنة يمتحن بها الأدباء ، ونقمة يصيب الله بها هؤلاء الذين يمنحهم شيئا من حسن الذوق والقدرة على فهم الأدب وتقريبه الى الناس . وقد امتحن الله صديقنا المازنى ووفر له من نقمة الادب وبلائه حظا عظيما ، فجعله شاعرا مجيدا وكاتبا بارعا ، وناقدا مسموع الكلمة ، مهيب الجانب ، مقدور الرأى ، لا يصدر كتاب الا أراد الناس أن يعرفوا رأيه فيه وحكمه عليه . وكان صاحب الكتاب نفسه أحرص الناس على ذلك وأشدهم طلبا له والحاحا فيه . والكتب تمطر على الاستاذ المازنى ، ويمطر معها طلب النقد وطلب التقريظ ، والنقد والتقريظ يحتاجان الى القراءة والدرس . واذن فالمازنى المسكين مصروف عن نفسه وعن فنه وعن كتبه ، الى هؤلاء الناس الذين يكتبون ، والى هؤلاء الذين يقرأون . ومن هنا ومن جهات أخرى أيضا كان المازنى شقيا بالادب ، وأن كان الادب سعيدا بالمازنى ، وأى دليل على شقاء المازنى بالادب وسعادة الادب بالمازنى ، أقوى من هذه القصة التى أحدثك عنها الآن ؟

فقد اخرج كاتب من الكتاب كتابا من الكتب ، واهداه الى الاستاذ بالطبع . وعرف الناس أن هذا الكتاب قد أهدى اليه فأخذ الناس ينتظرون ، وأخذ صاحب الكتاب بنوع خاص ينتظر ، فلما طال الانتظار كان الطلب ، ولما كان الطلب ولم يجد شيئا كان الالحاح . واضطر المازنى الى أن يذعن ، وأكره المازنى على أن يكتب ، ولكنه كان قد أرسل الكتاب الى من يجلده . فلما اشتد عليه الالحاح ذهب فى طلب الكتاب من المجلد . فدفع الى رحلة غريبة ، والى استكشاف أغرب . دفع من هذه الاحياء المتحضرة التى تتسع فيها الشوارع ، وتجرى فيها السيارات ، وتنتشر فيها الشرطة ، والتى لا تتغطى ارضها بالوحل ، ولا تمطر سباخا ومرقا ولا مخللا ، الى أزقة ضيقة ملتوية فاسدة الهواء ، تعيش فيها أجيال من المردة والشياطين ، وفى هذه الازقة عرف المازنى الخوف والفرق ، وعرف الهرب والغلو فيه ، وعرف كيف يكون وقع الاحجار على الاجسام ، وكيف يكون وقع الشتائم فى النفوس . ثم عرف كيف يفقد الناس طرابيشهم ، وكيف ينظرون اليها وهى تهان وتمرغ فى الوحل تمريغا ، ثم عرف كيف يدفع الهاربون الى اقتحام الدور والاستخفاء فى البيوت وقد غاب عنها اهلها . ثم عرف قصة الرجل الذى ذهب يطلب كتابا ففقد طربوشه وعاد صفر اليدين .

والغريب ان هذه الرحلة الهائلة وما امتلأت به من الاخطار كانت كلها فى القاهرة ، وفى ساعات قصيرة ، ولست أدرى فيم يحتاج الذين يحبون الاخطار الى التماسها فى الصحراء او فى الجبال او على البحر والمحيط ، مادام الانتقال من حى من أحياء القاهرة الى حى آخر ، خليقا ان يرينا من الهول والخطر ما رأى صديقنا الكاتب الاديب

ومن هنا نستطيع أن نفهم ضيق المازنى بالأدب والأدباء ، وبالكتب والمؤلفين ونضرعهم المتصل الى الله أن يعفيه من هذه الصناعة التى يشقى بها ، ولكنها تسعد به وتسعد الناس أيضا . ولكن الاستاذ المازنى يتساءل فى شيء من الحيرة : أيجب أن يقرأ ما يريد هو أم يجب أن يقرأ ما يريد الناس ؟ واذا سمح لى بأن أجيبه فانى أرى أنه ملزم بان يقرأ ما يريد ، وبأن يقرأ ما يريد الناس ، مادام قد أقبل على صناعته هذه راضيا بها أو مكرها عليها ، ولكن السؤال الذى أحب أنا أن أسأله هو . هل يظن الاستاذ المازنى أنه أبرأ ذمته امام القراء وامام المؤلف بهذا الفصل البديع الذى كتبه منذ ايام ، تحدثنا فيه عن النقد والطربوش وزجاج النافذة ، وعما تحمل الارض من وحل ، وما تمطر السماء من مرق ؟ فان كان يظن أنه قد أرضى قراءه وصاحبه بهذا الفصل فقد أصاب وأخطأ فى وقت واحد . أصاب لأن الفصل بديع ، وأخطأ لأنه لا يغنى من النقد شيئا ، فلن يعفيه صاحب الكتاب من الالحاح عليه ، ولن يدعه حتى يقول إنه قد قرأ هذا الكتاب فرضى عنه أو سخط عليه .

وسؤال آخر ، أحب الا يغضب صديقى المازنى حين أسوقه اليه . ما باله يطغى على نفسه ويسرف عليها فى الطغيان ، ويصورها هذا التصوير الذى لا يلائمها بحال من الاحوال ، والذى لا نحبه لها ؟ فهل من الحق أنه هياب الى هذا الحد ؟ كلا ، ولكنه يحب أن يعبث بنفسه فيسرف فى العبث ، وأكبر الظن أننا ان حدثناه فى ذلك ضاق بنا وضجر ، وشكا من هؤلاء الطفيليين الذين يدخلون بين الناس وبين انفسهم ، وقال اذا لم يكن لى الحق فى أن اعبث بنفسى فلن

(البقيـــة على صفحة ٥٢٠)